بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد المرسلين والرحمة المهداة للعالمين أعطاه الله جوامع الكلم خصوصية خصه الله بها دون غيره من الأنبياء والمرسلين وهذه الميزة تلقفها المسلمون فى عصره وفى كل عصر بالحفظ والفهم والتدوين والشرح والتعليم وظهر فى كل هذا نوابغ من عظماء المسلمين حفظوا للسنة مكانتها وكرامتها وجلالها ولألاءها ونضارتها وكان من علماء السنة الممتازين الإمام الكبير شيخ الإسلام أبو الحسن على بن عمر الدارقطنى أحد علماء القرن الرابع الهجرى ألف فى الحديث وعلومه مولفات كثيرة منها كتاب السنن المشهور الذى يعتبر كتاب حديث وكتاب فقه وكتاب مصطلح فى علوم الحديث لما تضمنه من بحث فى أحوال السند ورجاله مع بيان علله ، وهو بكل ذلك مع المؤلفات الأخرى فى الجرح والتعديل واللغة والأدب والقراءات وغيرها يبين لنا مدى الجهد المتواصل والنفس الطويل والحفظ المنقطع النظير من الإمام الكبير أبى الحسن الذى شهد له فحول الحفاظ الثقات والنقاد وكبارهم وعظماء رجال والجرح والتعديل بأنه فى صفوف العظماء الخالدين الذين خلدوا ذكراهم بخلود هذا الدين بما أدوا من خدمات جليلة لحديث سيد المرسلين وبذلك فازوا بالحسنين — وسعدوا بالدارين ورضى الله عنهم ورضوا عنه — وهاءنذا أقدم مقتطفات من سيرة هذا الإمام البطل وأعماله العظيمة ولو حاولت أن أكتب عنه كل شىء لما وسعته المجلدات الكبيرة وكل الذى بذلته إنما هو قشور على هامش حياة هذا الرجل ، وأعماله الجليلة ومعذرة ومغفرة للقراء من التقصير فقد بذلت قدر المستطاع والله سبحانه هو الموفق والمعين .

شيخ الإسلام وحافظ الزمان

الإمام الكبير علي بن عمر الدارقطني

(٣٠٦ هـ — ٣٨٥ هـ)

هو أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار ابن عبد الله الدار قطني البغدادي صاحب التصانيف وأحد الأعلام الثقات وشيخ الإسلام، إليه النهاية في معرفة الحديث وعلومه ولقد وصل إلى درجة أمير المؤمنين في الحديث وهو أستاذ هذه الصناعة. سمع الكثير وجمع وصنف وألف وأجاد وأفاد وأحسن النظر والتعليل والانتقاد والاعتقاد

ينسب إلى دار قطن وهي محلة ببغداد نشأ فيها الحافظ أبو الحسن كما قال ابن الأثير في تهذيب الأنساب(١) — قال فيه ابن كثير في كتاب البداية والنهاية — كان فريد عصره ونسيج وحده وإمام دهره في أسماء الرجال وصناعة التعليل وحسن التصنيف والتأليف واتساع الرواية التام في الدراية(٢)

وكان مولده رضي الله عنه في ذي القعدة سنة ست وثلاثمائة وكان عالما فقيها على المذهب الشافعي، وعاش رضي الله عنه مايقرب من الثمانين عاما فلقد انتقل إلى رحاب ربه في سنة خمس وثمانين وثلاث مائة بعد حياة حافلة بالجد والاجتهاد في خدمة الحديث وعلومه ومعرفة علله وأسماء رجاله معرفة جيدة، جعلته بحق وجدارة نجما لامعا خفاقا ورائدا كبيرا من الرواد الأوائل رحلت إليه أكباد الإبل من كل حدب وصوب وتتلمذ عليه أئمة ذو شأن في المجتمع الإسلامي للإستفادة من مواهبه الفذة

(١) ابن الأثير في تهذيب الأنساب ص ٤٠٤

(٢) كتاب البداية والنهاية لابن كثير ص ٨١ ج ٦

وعبقريته النادرة وذكائه المتوقد، وبروزه في كافة العلوم والحديث منها بوجه خاص لا سيما علله وقد حاز قصب السبق في ميدان الحديث وفاز منه بالقدح المعلى وشهد له فحول الحفاظ وثقات النقاد وكبارهم وعظماء رجال الجرح والتعديل بأنه كان وحيدا في وقته، تقدم الصفوف وحمل راية الحديث وعلومه طيلة حياته وهذه الشهادات الكبيرة التي شهد له بها الموافق والمخالف كانت بمثابة الأوسمة العلمية الوضاءة التي استحق بها ما استحق من تقديم وإجلال وإكبار.

مؤلفاته:

ألف في علوم الحديث مؤلفات كثيرة طبقت الخافقين وسارت بذكرها الركبان في شتى أقطار الإسلام منها كتاب السنن المشهور، ذلك الكتاب القيم الجليل الذي يعد في طليعة كتب السنة وأجلها لما تضمنه من تحقيق واف في أحوال السند ورجاله وقفه الحديث وصحة متنه والكلام على كثير من الأحاديث وبيان عللها، وهو بذلك من أحسن المصنفات في بابه لم يسبق إلى مثله ولا يلحق في شكله إلا من استمد من بحره وعمل كعمله وهو أيضا من مظان الحديث الحسن(١) —.

وللعظيم(٢) الآبادي شرح عليها يسمى «التعليق المغني على سنن الدارقطني» وبآخرها رسالة لليماني الخزرجي في الحديث الشاذ والمعلل وهو كتاب مطبوع في جزئين في مجلد واحد طبع حجر بالهند سنة ١٣١٠ هجرية وقد طبع أخيرا في أربعة أجزاء وهذا الكتاب له قيمة علمية كبيرة حسبما تقتضيه صناعة الحديث من مهارة ونبوغ عظيم ودقة ملاحظة شاملة فهو يروي الحديث ويعلق عليه ويحكم عليه بالقوة أو بالضعف وعلى رجاله من حيث التجريح

(١) أنظر سنن الدارقطني ج ١ ص ٩١

(٢) المحدث العلامة أبي الطيب محمد شمس الحق

والتعديل ويأتى بالحكم الفقهى ويستدل عليه بروايات كثيرة تؤيده قد تصل إلى أكثر من ثلاثين رواية كلها فى حكم واحد وبأسانيد مختلفة فمثلا فى دليل تثليث المسح نراه يقول حدثنا الحسين بن اسماعيل اخبرنا محمد بن اسماعيل ابن يوسف السلمى أخبرنا ايوب بن سليمان بن بلال حدثنى ابو بكر عن سليمان بن بلال عن اسحاق بن يحيى عن معاوية بن عبد الله بن ابى جعفر بن أبى طالب عن أبيه عبد الله بن جعفر عن عثمان بن عفان أنه توضأ فغسل يديه ثلاثا كل واحدة منها واستنثر ثلاثا ومضمض ثلاثا وغسل وجهه ثلاثا وغسل ذراعيه كل واحدة منها ثلاثا ومسح برأسه ثلاثا وغسل رجليه ثلاثا ثلاثا كل واحدة منها .

ثم قال رأيت رسول الله ﷺ يتوضأ هكذا ، ثم بعد ذلك يحكم على رجال السند فيقول «اسحاق بن يحيى ضعيف .

ثم يذكر بعد ذلك الروايات المختلفة بالأسانيد المختلفة ليؤيد هذا الحكم وكل هذه الأسانيد تأتى بجوار بعضها فى مكان واحد أشبه بالفصل المستقل داخل الباب وقد ذكر فى استدلاله على تثليث المسح إحدى عشرة رواية(١) .

ثم نراه فى مكان آخر فى باب قول الرسول ﷺ من كان له إمام فقراءة الإمام له قراءة يذكر روايات وأسانيد مختلفة فى هذا الحكم الفقهى تصل إلى اثنين وثلاثين رواية(٢) .

فهذا الكتاب بهذه الطريقة اعتبره الحفاظ والباحثون أكبر كتاب فى الحديث النبوى يجمع أكبر قدر ممكن من طرق الحديث ، كما أنه كتاب فقه

(١) أنظر سنن الدارقطنى جـ ١ ص ٩١ باب «دليل تثليث المسح» .
(٢) السنن جـ ١ ص ٣٢٣

أيضا وكتاب جرح وتعديل ومن طالعه يفهم منه ذلك وعرف فى الأوساط العلمية الدينية . بسعة الاطلاع وطول الباع والبحث المتواصل والنفس الطويل والحفظ المنقطع النظير فى الحديث النبوى الشريف ومن مؤلفاته الكثيرة كتاب العلل يقول ابن كثير فى البداية والنهاية: «وله كتاب العلل بين فيه الصواب من الدخل والمتصل من المرسل والمنقطع من المتصل(١) .

وهو أجمع كتاب فى هذا الباب وكان يمليها من حفظه وجمعها عنه أبو بكر البرقانى تلميذه وهو شاهد له بالبراعة .

ثم يواصل ابن كثير وصفه للدارقطنى فيقول: وله كتاب الافراد والذى لا يفهمه فضلا عن حفظه إلا من هو من الحفاظ الأفذاذ الأئمة النقاد والجهابذة الجياد وله غير ذلك من المصنفات التى هى كالعقود فى الأجياد(٢) .

وقال الخطيب البغدادى يصف الإمام الحافظ أبو الحسن: «وكان فريد عصره وقريع دهره ونسيج وحده وإمام وقته انتهى اليه علم الأثر والمعرفة بعلل الحديث وأسماء الرجال وأحوال الرواة مع الصدق والامانة والفقه والعدالة وقبول الشهادة وصحة الاعتقاد وسلامة المذهب والاضطلاع بعلوم سوى علم الحديث . منها القراءآت فان له فيها كتابا مختصرا موجزا جمع الأصول فى أبواب عقدها أول الكتاب .

وسمعت بعض من يعتنى بعلوم القرآن يقول: لم يسبق أبو الحسن إلى طريقته التى سلكها فى عقد الأبواب المقدمة فى القراءآت وصار القراء بعده يسلكون طريقته فى تصانيفهم ويحذون حذوه — ومنها المعرفة بمذهب الفقهاء، فان كتاب السنن الذى صنفه يدل على انه كان ممن اعتنى بالفقه لانه لا يقدر على جمع ما تضمنه ذلك الكتاب إلا من تقدمت معرفته بالاختلاف

(١) البداية والنهاية لابن كثير جـ ١١
(٢) أنظر البداية لابن كثير جـ ١١

فى الاحكام وبلغنى أنه درس الفقه الشافعى على أبى سعيد الأصطخرى وقيل بل درس الفقه على صاحب لأبى سعيد وكتب الحديث عن أبى سعيد نفسه

ومنها أيضا «المعرفة بالأدب والشعر» وقيل: إنه كان يحفظ دواوين جماعة من الشعراء(١).

ومن كتبه القيمة فى كتاب المختلف والمؤتلف، فى أسماء الرجال وهو أن تتفق أسماء الرواة فى الخط وتختلف فى النطق نحو سلام وسلام أحدهما بشد اللام — صنف فيه الحافظ أبو الحسن كتابا حافلا وأخذ منه الحافظ أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى ومن مشيخته النسبة وزاد عليهما وجعله كتابا سماه المؤتلف تكملة المختلف وتوفى سنة ٤٦٣ ثلاث وستين وأربعمائة، وجاء الأمير الحافظ أبو نصر على بن هبة الله ابن ماكولا، (ابو نصر على بن هبة الله بن على بن جعفر المعروف بابن ماكولا) فزاد عليه وجعله كتابا حافلا سماه الإكمال أجاد فيه وتوفى سنة ٤٨٧ سبع وثمانين وأربعمائة، واستدرك عليهم ما فاتهم فى كتاب آخر سماه «تهذيب مستمر الأوهام على ذى التعن والاحلام» ثم جاء الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الغنى المعروف بابن نقطة الحنبلى وذيل على الإكمال فى مجلد وجمع كتابا آخر سماه التقييد لمعرفة رواة السنن والأسانيد ومات سنه ٦٢٩ — تسع وعشرين وستمائة ومن هذا النوع الكمال وتهذيبه المشتبه للذهبى وتبصرة المنتبه لابن حجر والذيل على كتاب ابن نقطة لابى حامد الصابونى وهو الحافظ محمود بن على الدشتى المتوفى سنة ٦٧٢ أثنتين وسبعين وستمائة والذيل عليها لعلاء الدين مغلطاى بن قليج المتوفى سنة ٧٦٢ اثنتين وستين وسبعمائة وهو ذيل كبير لكن أكثره أسماء الشعراء وأنساب العرب(٢).

ومن كتبه العظيمة كتاب الإلزامات على الصحيحين للبخارى ومسلم

---

(١) أنظر تاريخ بغداد الخطيب البغدادى ص٣٤ ج ٩

(٢) كشف الظنون حـ ٢ ص ١٦٣٧ لحاجى خليفة

جمع فيه ما وجده على شرط الشيخين من الأحاديث وليس بمذكور فى كتابيهما وألزمهما ذكره وهو غير لازم ورتبه على المسانيد فى مجلد لطيف(١) وهو يشبه المستدرك على الصحيحين للحاكم المتوفى سنة ٤٠٥ هـ.

وله أيضا كتاب غريب اللغة. وعليه أطراف لابن القيسرانى محمد بن طاهر المقدسى المتوفى سنة سبع وخمسمائة(٢).

وله كتاب الأفراد وكتاب التتبع وهو مخرج فى الصحيحين وله علة. وكتاب الرؤية وهو خمسة أجزاء، وكتاب المستجاد من الأحاديث وكتاب معرفة مذاهب الفقهاء وكتاب الأربعين فى الحديث وكتاب الضعفاء(٣)، وكتاب العلل الواردة فى الأحاديث الموجود منه الخمس مجلدات الأولى كلها مخطوطة.

وقد ذكر صاحب كتاب هدية العارفين جملة من كتبه فقال:

من تصانيف الإمام الحافظ أبى الحسن الدارقطنى هى:—

١ — كتاب الضعفاء.

٢ — الأربعين فى الحديث.

٣ — الإلزامات على الصحيحين للبخارى ومسلم.

٤ — سنن الحديث.

٥ — غريب اللغة.

٦ — كتاب الأفراد فى الحديث الضعيف.

---

(١) كشف الظنون حـ ١ ص ٤٩ وهدية العارفين ص٦٨٣ حـ ١

(٢) كشف الظنون حـ ٢ ص ١٢٠٨

(٣) أنظر صفحات ١٤٠٣، ١٤٢١، ٦٦٧١، ٦٧٣٩ من الكتاب المذكور كشف الظنون حـ ٢

٧ — كتاب التتبع لما جرح فى الصحيحين .

٨ — كتاب التصحيف فى الحديث .

٩ — كتاب الجرح والتعديل .

١٠ — كتاب الرؤية .

١١ — كتاب العلل فى الحديث مجلدين ومن طالعه يندهش ويطول تعجبه من براعة هذا الإمام الفذ .

١٢ — كتاب القراءات .

١٣ — كتاب المساجد .

١٤ — كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الرجال .

١٥ — المستجاد فى الحديث .

١٦ — معرفة مذاهب الفقهاء وغير ذلك .

١٧ — كتاب أحاديث الصفات وهو مطبوع(١) .

ثناء العلماء عليه :

ولقد أثنى عليه العلماء كثيرا . فقال الحاكم أبو عبد الله النيسابورى(٢) : صار الدارقطنى أوحد عصره فى الحفظ والفهم والورع ، وإماما فى القراء والنحويين وأقمت فى سنة سبع وستين ببغداد أربعة أشهر وكثير اجتماعنا فصادفته فوق ما وصف لى وسألته عن العلل والشيوخ وله مصنفات يطول ذكرها فأشهد أنه لم يخلف على أديم الأرض مثله(٣) .

---

(١) انظر هدية العارفين ج ١ ص ٦٨٣

(٢) صاحب كتاب المستدرك على الصحيحين

(٣) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١٨٦ للإمام الذهبى

وكان رضى الله عنه يمتاز بقوة الذكاء النادر والحفظ الباهر حتى وهو ما يزال فى حداثته .

قال الخطيب البغدادى :

وحدثنى الأزهرى قال : بلغنى أن الدارقطنى حضر فى حداثته مجلس إسماعيل الصفار وقد ينسخ جزءا والصفار يملى فقال رجل : لا يصح سماعك وأنت تنسخ فقال : فهمى للإملاء خلاف فهمك أتحفظ كم أملى الشيخ؟ قال : لا أدرى قال الدارقطنى : أملى ثمانية عشر حديثا الحديث الأول عن فلان عن فلان ومتنه كذا وكذا والثانى عن فلان عن فلان ومتنه كذا وكذا أو مر فى ذلك حتى أتى على الأحاديث فتعجب الناس منه وقال الخطيب : وحدثنى الأزهرى أن أبا الحسن لما دخل مصر كان بها شيخ علوى من أهل مدينة رسول الله ﷺ يقال له مسلم بن عبيد الله وكان عنده كتاب النسب عن الخضر بن داود عن الزبير بن بكار وكان مسلم أحد الموصوفين بالفصاحة المطبوعين على العربية فسأل الناس أبا الحسن أن يقرأ عليهم كتاب النسب ورغبوا فى سماعه بقراءته فأجابهم إلى ذلك واجتمع فى المجلس من كان بمصر من أهل العلم والأدب والفضل فحرصوا على أن يحفظوا على أبى الحسن لحنة أو يظفروا منه بسقطة فلم يقدروا على ذلك حتى جعل مسلم يعجب ، ويقول وعربية أيضا .

ويقول أيضا : أنت يا أبا الحسن أجرأ من خاصى الأسد تقرأ هذا الكتاب مع ما فيه من الشعر والأدب فلا يؤخذ عنك لحنة أو سقطة .

وقال الخطيب : حدثنا محمد بن على الصورى قال سمعت أبا محمد جاد بن محمد بن عيسى الأنصارى المعدل يقول : سألت أبا الحسن الدارقطنى فقلت له هل رأى الشيخ مثل نفسه .

فقال : قال الله تعالى : « فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى » فقلت له : لم أرد

هـــذا وإنما أردت أن أعلمه لأقول: رأيت شيخا لم ير مثله فقال لى: إن كان فى فن واحد فقد رأيت من هو أفضل منى وأما من اجتمع فيه ما اجتمع فى، فـــلا.

وحدثنى أبو الوليد سليمان بن خلف الأندلسى قال:

سمعت أبا ذر الخضيرى يقول: سمعت أبا الحاكم أبا عبدالله الحافظ وسئل عن الدارقطنى — فقال ما رأى مثل نفسه قال لى الأزهرى: كان الدارقطنى ذكيا إذا ذكر شيئاً من العلم أى نوع كان وجد عنده منه نصيب وافر.

ولقد حدثنى محمد بن طلحة بن عـــلى أنه حضر مع أبى الحسن فى دعوة عند بعض النـــاس ليلة فجرى شىء من ذكر الأكلة فاندفع أبو الحسن يورد أخبار الأكلة وحكاياتهم ونوادرهم حتى قطع نصف ليلة أو أكثرها بذلك.

وسمعت القاضى أبا الطيب طاهر بن عبدالله الطبرى يقول: كان الدارقطنى أمير المؤمنين فى الحـديث وما رأيت حافظا ورد بغداد إلا مضى إليه وسلم له التقدمة من الحفظ وعلو المنزلة فى العلم.

وحدثنى الصورى قال: سمعت عبد الغنى بن سعيد الحافظ بمصر يقول: أحسن الناس كلاما فى حديث رسول الله ﷺ ثلاثة: على بن المدينى فى وقته، وموسى بن هارون فى وقته، وعلى بن عمر الدارقطنى فى وقته.

وكان عبد الغنى بن سعيد إذا حكى عن أبى الحسن شيئاً يقول: أستاذى وسمعت أستاذى فقال له البرقانى فى ذلك، فقال: وهل تعلمنا هذين الحرفين من العلم إلا من أبى الحسن الدارقطنى، قال البرقانى وما رأيت بعد الدارقطنى أحفظ من عبد الغنى بن سعيد.

وقال الخطيب: سألت البرقانى: قلت له هل كان أبو الحسن الدارقطنى

يملى عليك العلل من حفظه؟ فقال: نعم وأنا الذى جمعتها وقرأها الناس من نسختى.

وقال الخطيب: وسمعت القاضى أبا الطيب الطبرى يقـول: حضرت أبا الحسن الدارقطنى وقد قرأت عليه الأحاديث التى جمعها فى الوضوء من مس الذكر فقال:

لو كان أحمد بن حنبل حاضرا لاستفاد هذه الأحاديث وقال الخطيب: البغدادى حدثنى الصورى قال: سمعت رجاء بن محمد الأنصارى المعدل يقول: كنا عند الدارقطنى يوما والقارىء يقرأ عليه وهو قائم يصلى نافلة. فمر حديث فيه ذكر نسير بن ذعلون، فقال القارىء بشير بن ذعلون فقال الدارقطنى: (سبحان الله).

فقال القارىء: بشير بن ذعلون فقال الدارقطنى: (نون والقـــلم وما يسطرون).

وحدثنى حمزة بن محمد بن طاهر قال كنت عند أبى الحسن الدارقطنى وهو قائم يتنفل فقرأ عليه أبو عبد الله الكاتب حديثا لعمرو بن شعيب فقال عمرو ابن سعيد ووقف، فقال أبو الحسن (سبحان الله) فأعاد الإسناد وقال: عمرو ابن سعيد ووقف، فقرأ أبو الحسن (ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا) فقال أبو عبدالله الكاتب عمرو بن شعيب.

وحدثنى الأزهرى قال: رأيت محمد بن أبى الفوارس وقد سأل أبا الحسن الدارقطنى عن علة حديث أو اسم فيه فأجابه ثم قال: يا أبا الفتح ليس بين الشرق والغرب من يعرف غيرى.

وقال الخطيب قرأت بخط حمزة بن محمد بن طاهر الدقاق عن أبى الحسن الدارقطنى.

جعلنـــاك فيما بيننا رسولنا

وسيطا فـلم تظلم ولم تتحدب

فأنت الذى لولاك لم يعرف الورى

ولو جهدوا ما صادق من مكذب

وحدثنى العتيق قال: حضرت أبا الحسن الدارقطنى وقد جاءه أبو الحسن البيضاوى ببعض الغرباء وسأله أن يقرأ له شيئا فامتنع واعتل ببعض العلل فقال له: هذا غريب وسأله أن يملى عليه أحاديث فأملى عليه أبو الحسن من حفظه مجلسا يزيد عدد أحاديثه على العشرين يفوق جميعها فهم الشىء الهدية أمام الحاجة وانصرف الرجل ثم جاءه بعـــد وقد أهدى له شيئا فقربه إليه وأملى عليه من حفظه بضعة عشر حديثا يفوق جميعها « إذا أتاكم كريم فأكرموه »(١) . قلت هنا يخضع للدارقطنى ولسعة حفظه الجامع لقوة الحافظة والفهم والمعرفة .

وقال السبكى : تعجبنا منـه على ما حصل من الدارقطنى إذ كان يصلى ويصحح للقارىء خطأه وهـذا مع حسنه فى الفهم من أبى الحسن استعمال للمسألة المشهورة فيمن نسى فى الصلاة ثم ذكر بشىء من نظم القرآن قاصدا للقراءة وشىء آخر فإن صلاته لا تبطل على الأصح ولو قصد ذلك الشىء الآخر وحده لبطلت(٢) .

وقال ابن طاهر : « اختلفوا ببغداد فقال قوم على أفضل من عثمان رضى الله عنه فتحاكموا إلى الدارقطنى قال : اسكت عن الكلام وقلت الإمساك خير ، ثم لم أر لدينى السكوت فقلت : عثمان أفضل لاتفاق جماعة أصحاب

(١) انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ص ٣٩ ح ١٢

(٢) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ج ٢ ص ٣١٢

رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا وهو قول أهل السنة وهو أول عقد بحل من الرفض(١) .

وقال ابن الجوزى : قد أصبح له مع معرفة الحديث والعلم بالقراءات والنحو والفقه والشعر مع الإمامة والعدالة صحة العقيدة(٢) .

وقال ابن خلكان : وقد رحل إلى الديار المصرية قاصداً أبا الفضل جعفر بن الفضل المعروف بابن خنزابة وزير كافور الاخشيدى أيام الدولة الاخشيدية فى مصر فقد بلغه أن أبا الفضل عازم على تأليف مسند فمضى إليه ليساعده عليه وأقام عنده مدة وبالغ أبو الفضل فى إكرامه وأنفق عليه نفقة واسعة وأعطاه شيئا كثيرا وحصل له بسببه مال جزيل ولم يزل عنده حتى فرغ من المسند وكان يجتمع هو والحافظ عبد الغنى بن سعيد على تخريج المسند وكتابته إلى أن نجز(٣) .

ولقد تعلم الإمام الحافظ ببغداد والبصرة والكوفة وواسط وكانت رحلته إلى مصر فى كهولته ثم بعد ذلك إلى الشام(٤) ، وقال ابن خلكان : وكان ولادة الحافظ المذكور فى ذى القعدة سنة ست وثلاث مائة وتوفى يوم الأربعاء لثمان خلون من ذى القعدة وقيل الثامن من ذى القعدة وقيل ذى الحجة سنة خمس وثمانين وثلاث مائة ببغداد وصلى عليه الشيخ أبو حامد الإسفرايينى المشهور ودفن قريبا من معرف الكرخى الصوفى المعروف فى مقبرة باب حرب ببغداد رحمه الله تعالى(٥) .

(١) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ١٨٦ — ١٩٠ للإمام الذهبى

(٢) البداية والنهاية لابن كثير .

(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤١٧

(٤) البدايه والنهاية .

(٥) وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٤١٨

وقد روى الخطيب البغدادى عن الأمير أبى نصر هبة الله ابن ماكولا قال : رأيت فى المنام كأنى أسأل عن حال الدارقطنى وما آل اليه أمره فى الآخرة فقيل لى ذاك يدعى فى الجنة الإمام (١) .

وقال حدثنى عبد العزيز بن على الأزجى فقال توفى الدارقطنى يوم الأربعاء لثمان خلون من ذى القعدة سنة خمس وثمانين وثلاث مائة ودفن فى مقبرة باب الدير قريبا من قبر معروف الكرخى وقال أيضا :

سمعت عبد الملك بن محمد بن عبد الله بن بشران يقول ولد الدارقطنى فى سنة ست وثلاث مائة فى يوم الأربعاء وقال حدثنا أبو الحسن بن الفضل قال : قال الدارقطنى فى المحرم سنة خمس وثمانين وثلاث مائة فى يوم جمعة يا أبا الحسن اليوم دخلت فى السنة التى توفى لى ثمانين عاما (٢) .

وهكذا انتقل الإمام الحافظ أبو الحسن الدارقطنى إلى رحاب ربه راضيا مرضيا بعد أن خدم السنة وعلومها خدمة ممتازة وسافر فى طلبها ورحل من أجلها إلى كل من مصر والشام يطلب الحديث بعد أن تعلم ببغداد والبصرة والكوفة وواسط وخلد بذلك إسمه فى سجل الخالدين من علماء الدين ومن كبار علماء السنة الممتازين .

شيوخ الدارقطنى :

قال ابن كثير فى البداية والنهاية : الدارقطنى الحافظ الكبير أستاذ هذه الصناعة وقبله بمدة وبعده إلى زماننا هذا سمح الكثير وجمع وصنف وألف وأجاد وأفاد وأحسن النظر والتعليل والإنتقاد والأعتقاد وكان

(١) تاريخ بغداد ص ٣٥ ح ١٢
(٢) الخطيب البغدادى فى التاريخ ج ١٢ ص ٤٠

فريد عصره ونسيج وحده وإمام دهره فى أسماء الرجال وصناعة التعليل والجرح والتعديل وحسن التصنيف والتأليف واتساع الرواية التام فى الدراية (١) :

وقال ابن خلكان كان عالما حافظا فقيها على مذهب الأمام الشافعى رضى الله عنه أخذ الفقه عن أبى سعيد الاصطخرى الفقيه الشافعى وقيل بل أخذه عن صاحب لأبى سعيد وأخذ القراءة عرضا وسماعا عن محمد بن الحسن النقاش وعن أبى سعيد القزاز ومحمد بن الحسين الطبرى ومن كان فى طبقتهم وسمع من أبى بكر بن مجاهد وهو صغير وانفرد بالإمامة فى علم الحديث فى عصره ولم ينازعه فى ذلك أحد من نظرائه وتصدر فى آخر أيامه للإقراء ببغداد وكان عارفا باختلاف الفقهاء . (٢)

وقال ابن الجزرى فى طبقات القراء : أبو الحسن الدارقطنى البغدادى صاحب التصانيف وأحد الأعلام الثقات . عرض القراءات على أبى بكر النقاش وأبى الحسن أحمد بن جعفر بن المنادى ومحمد بن الحسين الطبرى ومحمد بن عبد الله الحربى وأبيه عمر بن أحمد وأبى القاسم على بن محمد بن كاس النخعى وأبى بكر محمد بن عمران الفجار محمد بن أحمد بن قطن . وأبى بكر محمد بن الحسن بن محمد الربعى وأبى الحسن بن بوريان وأحمد بن محمد الديباجى وعلى بن سعيد غوابة وسمع كتاب السبعة من ابن مجاهد وتصدر للإقراء فى أواخر حياته وألف فى القراءات كتابا جليلا لم يؤلف مثله وهو أول من وضع أبواب الأصول قبل الفرش ولم يعرف مقدار هذا الامن وقف عليه ولم يكمل حسن كتاب جامع البيان إلا لكونه نسج على منواله (٣) .

(١) البداية ج ٣ ص ٣١٣
(٢) وفيات الأعيان ح ١ ص ٤١٧
(٣) غاية النهاية فى طبقات القراء لابن الجزرى ح ١ ص ٥٥٩

وقال الخطيب : سمع أبا القاسم البغوى وأبا بكر بن أبى داود ويحى بن صاعد وبدر بن الهيثم القاضى وأحمد بن اسحاق بن البهلول وعبد الوهاب ابن أبى طيبة والفضل بن أحمد الزبيدى وأبا عمر محمد بن يوسف القاضى وأحمد ابن القاسم أخا أبا الليث الفرائضى وأباسعيد العدوى ويوسف بن يعقوب النيسابورى وأبا هارون بن هارون الحضرمى وسعيد بن محمد أخا زبير الحافظ ومحمد بن نوح النيسابورى وأحمد بن عيسى بن مسكين العلوى واسماعيل ابن العباس الوراق وابراهيم بن حماد القاضى وعبد الله بن محمد بن سعيد الجمال وأبا طالب أحمد بن نصر الحافظ وخلقا كثيرا من هذه الطبقة ومن بعدهم (١) .

وإليك ترجمه لاثنين من أهم شيوخه العظام :

١ — ابن أبى داود :

الحافظ العلامة قدوة المحدثين أبو بكر عبد الله بن الحافظ الكبير أبى داود سليمان بن الأشعث بن اسحاق بن بشير الأزدى السجستانى صاحب التصانيف والسنن .

ولد بإقليم سجستان وسمع عيسى بن حماد وأحمد بن صالح وابن السرح ومحمد بن يحى الزمار ومحمد بن أسلم وطبقتهم بخراسان والعراق والحرمين ومصر والشام والجزيرة وبرع وساد الأقران .

حدث عنه ابن المظفر والدارقطنى وأبو عمر بن حيويه وأبو أحمد الحاكم وأبو حفص بن شاهين وأبو القاسم بن حبان وخلق كثير .

ولد سنة ثلاثين ومائتين وسمع سنة أربعين باعتناء أبيه ولذكائه

(١) تاريخ بغداد جـ ١٢ ص ٣٤

كان يقول رأيت جنازة اسحاق بن راهويه ودخلت الكوفه ومعى درهم فاشتريت ثلاثين مترا باقلاء فكنت آكل وأكتب عن الأشياخ فما فرغ الباقلانى حتى كتبت عنه ثلاثين ألفا من الحديث ما بين مقطوع ومرسل .

قال الحاكم سمعت أبا بكر يقول حدثت من حفظى بأصبهان لستة وثلاثين ألفا ألزمونى الوهم فيها فى سبعة أحاديث فلما انصرفت وجدت فى كتابى خمسة منها على ما كنت حدثتهم به وقال محمد بن عبد الله بن الشخير : كان ابن أبى داود زاهدا فاسكا صلى عليه يوم مات نحو من ثلاث مائة ألف إنسان أو أكثر ومات فى ذى الحجة سنة ست عشرة وثلاثمائة وخلف ثلاثة بنين عبد الأعلى ومحمود أبا معمر وعبد الله وخمس بنات وله سبع وثمانون سنة وصلى عليه ثمانون مرة . رحمة الله تعالى . (١)

٢ — يحى بن محمد بن صاعد بن الكاتب :

يحى بن محمد بن صاعد بن الكاتب بن أبى جعفر الحافظ الإمام الثقة أبو محمد الهاشمى البغدادى ولد سنة ثمان وعشرون ومائتين . وقال كتبت الحديث عن الحسن بن عيسى بن ماسرجس سنة تسع وثلاثين .

وسمع من الوليد وأحمد بن منيع وسوار بن عبد الله القاضى ويحى ابن سليمان بن فضلة والحسن بن حماد سجادة وأبا همام السكونى وهارون ابن عبد الله الحمال وأبا عمار الحسين بن حريث وعبد الله بن عمران العابدى وخلف لايحصون .

حدث عنه أبو القاسم البغوى مع تقدمه ومحمد بن عمر الجعابى وابن

(١) تذكرة الحفاظ جـ ٢ ص ١٩٣

المظفر والدراقطنى وابن حبان وأبو طاهر المخلص وعبد الرحمن بن أبى شريح وأبو مسلم الكاتب وأبو ذر عمار بن محمد وخلق كثير .

قال فيه الدارقطنى : ثقة ثبت حافظ .

وقال أحمد بن عبد الله الشيرازى : هو أكثر حديثا من محمد الباغندى ولا يتقدمه أحد فى الدراية .

وقال أبو على النسابورى لم يسكن بالعراق فى أقران ابن صاعد أحد فى فهمه .

وقال الخطيب : كان ابن صاعد ذا محل من العلم وله تصانيف فى السنن والأحكام .

وكان أيضا متبحرا فى الرجال والعلل وله كلام متين فيها . توفى فى ذى القعدة سنة عشر وثلاث مائة رحمه الله تعالى (١) .

تلاميذ الدراقطنى :

روى عنه خلق وأئمة كبار مثل أبو حامد الاسفرايني وأبى ذر الهروى وأبى عبد الله الحاكم وأبى بكر البرقانى وعبد الغنى الأزدى وتمام الرازى وأبى نعيم الأصبهانى وأبى محمد الخلال وأبى الطيب الطبرى وأبى الحسن بن المهتدى بالله وأبو القاسم بن بشران وحمزة بن محمد بن طاهر والأزهرى والجوهرى والتنوخى وعبد العزيز الأزجى وأبو بكر بن بشران والعتيقى وأبو الحسين بن الأنبدوسى وعبد الصمد بن المأمون (٢)

وقال ابن الجزرى : روى عنه الحروف السبعة محمد بن ابراهيم بن أحمد وقد رحل إلى مصر والشام وهو كبير فافاد (٣)

وإليك ترجمة لإثنين من أهم تلاميذه :

(١) تذكرة الحفاظ جـ٢ ص ١٤٩ (٢) تذكرة الحفاظ جـ٣ ص ١٨٦

(٣) طبقات القراء لابن الجزرى جـ١ ص ٥٥٩

أبو ذر الهروى — ٣٣٥ — ٤٣٤ هـ

الإمام العلامة الحافظ عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير الانصارى المالكى بن السماك شيخ الحرم المكى فى عصره .

سمع أبا الفضل بن خميرويه و بشير بن محمد المزنى وعدة بهراة وأبا محمد ابن حمدويه وزاهر بن أحمد السرخسى وأبا لهيثم الكشميهنى بمرو ، وأبا بكر هلال بن محمد وأبا الحسن الدراقطنى وغيرهم .

وجاور بمكة وألف معجما لشيوخه وعمل الصحيح وصنف التصانيف روى عنه ولده عيسى وعلى بن محمد بن أبى الهارون وموسى بن عيسى الحلى وعبد الله بن الحسن التنيسى وابو صالح النيسابورى المؤذن وعلى بن بكار الصورى وأحمد بن محمد الغزوينى وأبو الطاهر اسماعيل بن سعيد النحوى وأبو الوليد الباجى وعبد الحق بن الحق بن هارون السهمى وأبو عمر بن البر وأحمد ابن عبد القادر اليوسفى ولد سنة خمس وثلاثين وخمسين وثلاث مائة تقريبا .

قال الخطيب : قدم أبو ذر بغداد أونا حقائب فحدث بها وحج وجاور ثم تزوج من العرب وسكن السروات فكان يحج كل عام ويحدث ويرجع وكان ثقة ضابطا دينا .

وقال أبو على بن سكرة : توفى فى عقب شوال سنة أربع ثلاثين وأربعمائة . وقال الخطيب فى ذى القعدة .

وقال عبد الغافر فى تاريخ نيسابور : كان أبو ذر زاهدا ورعا عالما سخيا لا يدخر شيئا صار من كبار مشيخة الحرم يشار إليه فى التصوف . خرج على الصحيحين تخريجا حسنا . وكان حافظا كثير الشيوخ .

قلت : وله أيضا مستدرك لطيف فى مجلد على الصحيحين عقلت كثيرا منه مما يدل على حفظه . قال القاضى عياض : لابى ذر كتاب كبير مخرج على الصحيحين و كتاب السنة والصفات و كتاب الجامع و كتاب الدعاء و كتاب فضائل القرآن و كتـــاب دلائل النبوة و كتاب شهادة الزور و كتاب فضائل مالك و كتاب العيدين ثم أرخ موته سنة خمس وثلاثين وأربعمائة . والصواب سنة أربع(١) .

وقال الاستاذ . السيد أحمد صقر فى كتاب الإلماع للقاضى عياض:هو عبد بن أحمد بن محمد الانصارى المالكى المعروف بابن السماك أصله من هراة ولد ستة ٣٥٥ ونزل بمكة ومات فى سنة ٤٣٤ هـ وكان أشعرى المعتقد لزم الدارقطنى والباقلانى وكان ثقـــة فاضلا ديناً حافظا بصيرا بالفقه والأصول وكان شيخ الحرم المكى فى عصره . وترجمته فى تاريخ بغداد ج١١ص ١٤١ وتبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى ص ٢٥٥ و٢٥٦ والعبر ج٣ ص١٨٠ — ١٨١ وشجرة النور الزكية ص١٠٤(٢)

أبو عبد الله الحاكم صاحب المستدرك ٣٢١ — ٤٠٥ هـ

الحافظ الكبير أمام المحدثين أبو عبد الله محمد عبد الله بن محمد بن حمدويه ابن نعيم الضبى الطهمانى النيسابورى المعروف بابن البيع صاحب التصانيف والمستدرك على الصحيحين .

ولد سنة إحدى وعشرين وثلاث مائة فى ربيع الأول ، طلب الحديث من الصغر باعتناء أبيه وخاله فسمع سنة ثلاثين ورحل إلى العراق وهو ابن عشرين وحج ثم جال فى خراسان وما وراء النهر وسمع بالبلاد من ألفى شيخ أو نحو ذلك . وقدرأى أبوه مسلما صاحب الجامع الصحيح.

(١) تذكرة الحفاظ ج٣ ص١٠٣٩

(٢) الإلماع للقاضى عياض تحقيق الاستاذ السيد أحمد صقر ص١١٤

روى عن أبيه ومحمد بن على بن عمر المذكور وأبى العباس الأصم وأبى جعفر ومحمد بن صالح بن هانىء ومحمد بن عبد الله الصفار وأبى عبد الله الآجرى وعلى بن محمد بن عقبة الشيبانى أبى على الحافظ واقتنع بصحبته ومازال يسمع حتى سمع من أصحابه حدث عنه الدارقطنى وهو من شيوخه وأبو الفتح بن أبى الفوارس وأبو العلاء الواسطى ومحمد بن أحمد بن يعقوب وأبو ذر الهروى وأبو يعلى الخليلى وأبو بكر البيهقى وأبو القاسم القشيرى وخلق كثير .

قال الخطيب أبو بكر : أبو عبد الله الحاكم كان ثقة واتفق له من التصانيف مالعله يبلغ قريبا من ألف جزء فى تخريج الصحيحين والعلل والتراجم والأبواب والشيوخ ثم المجموعات مثل معرفة علوم الحديث والمستدرك على الصحيحين وتاريخ نيسابور وكتاب مزكى الأخبار والمدخل إلى علم الصحيح و كتاب الإكليل وفضائل الشافعى وغير ذلك من تأمل كلامه فى تصانيفه وتصرفه فى أماليه ونظره فى طرق الحديث أذعن له بفضله واعترف له بالمزية على من تقدمه وإتعابه من جاء بعده وعجز اللاحقين عن بلوغ شأوه ، عاش حميداً ولم يخلف فى وقتـــه مثله ، قال عبد الغافر ابن اسماعيل : أبو عبد الله الحاكم أجل أهل الحديث فى عصره العارف به حسن المعرفة .

انتقل إلى رحمة ربه فى صفر سنة خمس وأربع مائة رضى الله عنه(١) وسوف نذكر الكلام على المستدرك بالتفصيل فيما يأتى فى كلامنا على السنة فى القرن الرابع الهجرى .

هذا الكتاب الذى اشتهر به الحاكم فى الأوساط العلمية لما له من أهمية كبيرة فى الحديث وعلومه .

(١) تذكرة الحفاظ ج٣ ص١٠٣٩

الحالة السياسية فى الدولة الإسلامية

فى القرن الرابع

منيت الدولة الإسلامية من مبدأ القرن الرابع الهجرى بتدهور سياسى قطع أوصالها وجعلها دويلات متناثرة وأشلاء ممزقة فدولة بنى أمية بالأندلس وعلى رأسها عبد الرحمن الناصر ملقباً نفسه بأمير المؤمنين سنة (٣٢٥) هـ وذلك لما أن أحس بضعف الدولة العباسية ، والفاطميون يستقلون بشمال إفريقيا ؛ والدولة الأخشيدية بمصر وإن كانت تدعو لبنى العباس إلا أنها مستقلة عنهم فى حقيقة الأمر ودولة بنى حمدان تسيطر على الموصل وحلب فى الشام . وإن تظاهرت بالدعوة لبنى العباس . والشيعة الزيدية باليمن أقاموا لهم دولة . والدولة السامانية العظيمة تسيطر على المشرق وبلاد ماوراء النهر ودولة بنى بويه تسيطر على بغداد ولا تبقى لبنى العباس سوى مجرد الإسم ولم تكن الحياة السياسية حياة استقرار بل كانت مضطربة مائجة فالفاطميون يغيرون على مصر ويستقلون بها سنة ٣٥٨ هـ ، وآل سلجوق يطغى سيلهم على معظم البلاد الإسلامية فينتزعون الملك من بنى بويه ويستولون على الجزيرة وآسيا الوسطى وينازعون الفاطميين ملك الشام وتصبح لهم الكلمة النافذة فى جميع الأقاليم الإسلامية ماعدا مصر وبلاد المغرب ثم لما دب الخلاف بين آل سلجوق حيث ريح الصليبيين فقاموا فى أواخر القرن الخامس واستولوا على بيت المقدس سنة ٤٩٠ هـ وكانت لهم حروب طويلة مع المسلمين وعلى أنقاض الدولة السلجوقية قامت دولة الأتابكة وانتشرت شرقا وغربا حتى سقطت الدولة الفاطمية فى مصر على يد محمود نور الدين وعادت مصر ولاية عباسية وأقام بها صلاح الدين الأيوبى أحد قواد محمود نور الدين دولة عظيمة . طهر بها بيت المقدس من الصليبيين .

أما فى بلاد المشرق خراسان وما إليها فقد أقام خوارزم شاه محمد ابن رقش دولة قوية قضت على الملوك وضمت الممالك ، وفى أواخر القرن السادس عزم خوارزم شاه على التوجه إلى الخليفة ليقضى عليه فلم يتيسر له ذلك وباغته التتار النازحون من أطراف الصين والبرارى وعلى رأسهم جنكيز خان قائدهم الأعلى ولم يلبثوا أن أغاروا على البلاد الإسلامية فى سرعة هائلة يسفكون الدماء ويقتلون الأبرياء حتى وصلوا إلى بغداد وقتلوا الخليفة وأسقطوا الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه الأحداث التاريخية الهائلة والتقهقر السياسى الخطير لم يصحبه تقهقر علمى بل مازالت الحركة العلمية قائمة فالعلماء يرحلون من قطر إلى آخر يتلقى بعضهم من بعض ، ويعرضون الكتب والموسوعات على الشيوخ وكان لهم نشاط علمى فى نقد الرجال وتمحيص الأحاديث ومصنفات جياد فى علل الحديث وتاريخ الرواة وعلوم الحديث عامة .

غير أنهم لم يبلغوا شأو المتقدمين بل كثيراً ما كانوا يتكلمون بلسان أهل القرون السابقة (١) .

---

(١) تاريخ التشريع للخضرى ص ٣٣٣ ومابعدها وتاريخ الخلفاء للسيوطى فى عدة أماكن .

السنة فى القرن الرابع الهجرى

كان القرن الثالث الهجرى هو أزهى عصور السنة وأحفلها بخدمة الحديث ، ففيه ظهر أفذاذ الرجال من حفاظ الحديث وأئمة الرواية ، وفيه ظهرت الكتب الستة التى لم تغادر من الحديث الصحيح سوى النزر اليسير ، فيه أعتنى أئمة السنة بالكلام على الأسانيد وتواريخ الرجال ومنزلتهم فى الجرح والتعديل ولم يكن العلماء فى هذا القرن يدونون الأحاديث بالنقل من كتب أخرى بل كان اعتمادهم على ماحفظوه عن مشايخ الحديث وعرفوا جيده من رديئه وصحيحه من ضعيفه .

وما كادت شمس هذا القرن تؤذن بالغروب حتى كانت الموسوعات الحديثية تزخر — بالحديث وعلومه وصار العلماء فى القرن الرابع وما بعده يجمعون ما تفرق فى كتب الأولين أو يختصرونها بحذف الأسانيد أو يقومون بشىء من الترتيب والتهذيب إلى غير ذلك ، وإذا تكلموا فى شىء من الأسانيد فبلسان من سبقهم من أهل القرون الأولى — غير أن جمهرة كبيرة منهم نسجوا على منوال السابقين وكان لهم فى رواية الأحاديث وفحص الأسانيد باع طويل .

هذا وكان العلماء فى القرون السابقة لا يعتمدون إلا الرواية الشفاهية فى نقل الحديث ، ولا يعولون على مجرد الكتب حتى ينقلوا أحاديثها بطريق السماع من مؤلفيها ولو كلفهم ذلك أن يرحلوا الشهور الطوال .

أما فى هذا القرن فقد لفظت فيه الرواية الشفاهية أنفسها وذهب من بين الرواة — ريحها وطغى عليها التدوين الذى بلغ أشده فى ذلك الوقت لهذا جعل العلماء الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين من رواة الحديث وحمله هو رأس سنة ثلاث مائة كما قرره الحافظ الذهبى فى خطبة ميزانه(١) .

(١) ميزان الإعتدال فى أسماء المجروحين من الرجال للذهبى

ولا يغيب عن البال أن هذا التطور فى تدوين الحديث وروايته لم يكن طفرة بل كان تدريجياً سنة الله فى أنواع العلوم والمنافع والدول وغيرها لذلك وجد من بين علماء القرن الرابع طائفة كبيرة كان لها فى تدوين الحديث طريقة استقلالية على نمط التدوين فى القرن الثالث(١) فمن هؤلاء الأئمة الأعلام .

الحاكم :

أبو عبد الله النيسابورى المعروف بابن البيع صاحب المستدرك الذى أودعه من الأحاديث ما هو على شرط الشيخين أو شرط أحدهما ولكن لم يخرجاه فى كتابيهما وما أدى اجتهاده إلى تصحيحه وإن لم يكن على شرط واحد منهما وهو ينبه على القسم الأول بقوله هذا حديث على شرط الشيخين أو على شرط مسلم ، وعلى القسم الثانى بقوله ، هذا حديث صحيح الأسناد ، وقد يورد فيه مالم يصح عنده منبها على ذلك وهو متساهل فى التصحيح ولخص(١) المستدرك الحافظ — الذهبى المتوفى (٧٤٨) وتعقب كثيراً منه ببيان ضعفه أو نكارته أووضعه ووضع جزءا فى الأحاديث الموضوعة التى وجدت فيه فبلغت نحو مائة حديث وذكر له ابن الجوزى فى موضوعاته نحو ستين حديثاً أيضاً وقد تطرف أبو سعيد العلائى فحكم بأنه ليس فى المستدرك حديث على شرط الشيخين ، ورد عليه الذهبى ذلك بأنه فيه جملة وافرة على شرطهما وأخرى كبيرة على شرط أحدهما ولعل مجموع ذلك نحو نصف الكتاب وفيه نحو الربع من صح سنده وإن كان فيه علة ، وما بقى وهو نحو الربع فهو مناكير وواهيات لا تصح وفى بعض ذلك موضوعات .

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٣٢٥

(٢) وقد طبع الكتابان فى حيدر — أباد بالهند .

وقد اعتذر الحافظ ابن حجر عن التساهل الواقع فى مستدرك الحاكم فقال : إنما وقع للحاكم التساهل لأنه سود الكتاب لينقحه فعاجلته منيته ولم يتيسر له تحريره وتنقيحه قال : وقد وجدت قريباً من نصف الجزء الثانى من تجزئة ستة من المستدرك (إلى هنا انتهى املاء الحاكم)(١) .

وما عدا ذلك من الكتاب لايؤخذ عنه إلا بطريق الإجازة والتساهل فى القدر المملى قليل جداً بالنسبة إلى ما بعده ١٠ . هـ .

و كثير من المحدثين على أن ما انفرد بتصحيحه الحاكم فى المستدرك عن أئمة الحديث يبحث عنه ويحكم عليه بما يليق بحاله من الصحة أو الحسن أو الضعف .

وله غيره من التصانيف الحديثية : العلل والأمالى وفوائد الشيوخ وآمالى العشيات ومعرفة علوم الحديث وهو مطبوع بمصر إلى غير ذلك من كتبه التى بلغت ألفاً وحمسمائة جزء .

ورحل إلى العراق والحجاز رحلتين وذاكر الشيوخ وناظر الحفاظ وتولى القضاء بنيسابور سنة ٣٥٩ هـ .

وقد قدمنا له ترجمة على أنه من تلاميذ الدار قطنى ، توفى رحمه الله سنة ٤٠٥ هـ(٢) .

ومن هؤلاء الأئمة الأعلام صاحب البحث :

---

(١) فتح المغيث جـ١ صـ ٣٧ للسخاوى .

(٢) التاريخ لابن كثير جـ ١١ صـ ٣٥٥

الدار قطنى :

أمير المؤمنين فى الحديث واستاذ هذه الصناعة سمع الكثير وصنف وألف وأجاد وأفاد وأحسن النظر والتعليل . كان إمام عصره فى صناعة الجرح والتعديل وحسن التأليف واتساع الروايه ، وله كتاب الالزامات وهو كالمستدرك على الصحيحين وقد تقدم الكلام عليه وله كتاب السنن وقد طبع بالهند مع تعليقات لشمس الحق بن الطيب محمد بن أحمد بن على الآبادى . وله كتاب العلل بين فيه الصواب من الدخل و كتاب الأفراد . وغير ذلك وقد تكلمنا على ذلك بالتفصيل فيما سبق وتوفى رحمه الله تعالى سنة ٣٨٥ .

ومنهم أيضا الإمام :

ابن حيان .

هو محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن معبد أبو حاتم البستى التميمى الحافظ الجليل .

سمع كثيرا من الشيوخ فى كثير من الأمصار فقد كان رحالة زمانه . قال ابن السمعانى : (كان أبو حاتم إمام عصره رحل فيما بين الشاش والاسكندرية) .

وقال الحاكم : (كان من أوعية العلوم والفقه والحديث واللغة والوعظ ومن عقلاء الرجال .

وقال الخطيب : (كان ثقة نبيلا وله التصانيف الكثيرة منها المسند

---

(١) تاريخ ابن كثير جـ ١١ ص ٣١٧

الصحيح المسمى (الأنواع والتقاسيم) قال فيه : لعلنا كتبنا عن ألف شيخ ما بين الشاش والاسكندرية) و كتابه هذا على ترتيب مخترع فلا هو على الأبواب ولا هو على المسانيد .

رتبه مؤلفه على خمسة أقسام وهى الأوامر والنواهى والأخبار والإباحات وأفعال النبى ﷺ ، ونوع كل واحد من هذه الخمسة إلى انواع ، لذا كان الكشف فى كتابه عسرا جدا .

وقد رتبه بعض المتأخرين . وهو علاء الدين على بن بلبان الفارسى المتوفى سنة ٩٣٧ هـ سبع ثلاثين وتسعمائة من الهجرة النبوية الشريفة .

رتبه على الأبواب وسماه :(الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان) . قالوا وأصح من صنف فى الصحيح المجرد بعد الشيخين ابن خزيمة فابن حبان وقد نسبوا إليه التساهل فى التصحيح إلا أن تساهله أقل من تساهل الحاكم. قال الحازمى :(ابن حبان أمكن فى الحديث من الحاكم) .

ومنشأ هذا التساهل منه أنه كان يقول: (من كان منكر الحديث على قلته لا يجوز تعديله إلا بعد السبر .

ولو كان ممن يروى المناكير ووافق الثقات فى الأخبار لكان عدلا مقبول الرواية اذ الناس فى أحوالهم على الصلاح والعدالة حتى يتبين منهم ما يوجب القدح هذا حكم المشاهير من الناس فأما المجاهيل الذين لم يروعنهم إلا الضعفاء فهم متروكون على الأحوال كلها) .

قال ابن حجر فى مقدمة لسان الميزان بعد أن حكى قوله هذا : (وهذا الذى ذهب إليه ابن حبان من أن الرجل إذا انتفت جهالة عينه كان على العدالة حتى يتبين جرحه مذهب عجيب والجمهور على خلافه وهذا هو مسلك ابن حبان فى كتاب الثقات فإنه يذكر خلقا ممن نص عليهم أبو حاتم وغيره

على أنهم مجهولون وقد أفصح ابن حبان بقاعدته فقال : العدل من لم يعرف فيه الجرح إذ التجريح ضد التعديل فمن لم يجرح فهو عدل حتى يتبين جرحه إذ لم يكلف الناس ما غاب عنهم .

وقال فى ضابط الحديث الذى يحتج به (اذا تعرى راويه عن أن يكون مجروحا أو فوقه مجروح أو دونه مجروح أو كان سنده، مرسلا او منقطعا أو كان المتن منكرا) فهذا هو الذى يحتج بحديثه ، فمن هذا نرى أن ابن حبان يحكم للرجل بالعدالة إذا انتفت جهالة عينه حتى يتبين جرحه وهذا بخلاف ما عليه الجمهور فان جهالة العين عندهم لا تزول الا برواية عدلين فصاعدا عن المجهول وتعيينهما له ومع ذلك لا يثبت له حكم العدالة بروايتهما عنه

وزعم قوم أن عدالته تثبت بذلك وهذا باطل لأنه يجوز أن يكون العدل لا يعرف عدالته فلا تكون روايته عنه تعديلا له ولا خبرا عن صدقه وقد وجد من جماعة من الثقات الرواية عن جماعة غير مرضيين أمسكوا فى بعضها عن ذكر أحوالهم وفى بعضها شهدوا عليهم بالكذب فرواية العدل أو العدلين أو الاكثر عن راو لا يعد توثيقا له خلافا لما ذهب اليه ابن حبان ومن هنا نرى أن اطلاق الصحيح على كتابه فيه تجوز لأن كلامه فى الرواة يدخل عليه الحسن وقد حاول بعض العلماء الدفاع عنه فقال : (إن كانت نسبة التساهل إليه باعتبار وجدان الحسن فى كتابه فهى مشاحة فى الإصطلاح لأنه يسميه صحيحا وإن كانت باعتبار خفة شروطه فإنه يخرج فى الصحيح ما كان روايه ثقة غير مدلس سمع من شيخه وسمع منه الآخذ عنه ولا يكون هناك إرسال ولا انقطاع وإذا لم يكن فى الراوى جرح ولا تعديل وكان كل من شيخه والراوى عنه ثقة ولم يأت بحديث منكر فهو عنده ثقة وفى كتاب الثقات له كثيرا ممن هذه حاله ولأجل هذا ربما اعترض عليه فى جعلهم ثقات من لم يعرف اصطلاحه ولا اعتراض عليه فانه لامشاحة فى

الإصطلاح فابن حبان وفى بما التزمه من الشروط بخلاف الحاكم وتوفى رحمه الله تعالى سنة ٣٥٤ هـ أربع وخمسين وثلاث مائة(١) .

الطبرانى :

وهو الإمام أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبرانى المتوفى سنة ٣٦٠ هـ ستين وثلاث مائة — ألف المعاجم الثلاثة — الكبير والصغير والأوسط .

(والمعجم فى اصطلاحهم ما يذكر فيه الحديث على ترتيب الصحابة أو الشيوخ أو البلدان أو غير ذلك والغالب أن يكونوا مرتبين على حروف الهجاء) .

والمعجم الكبير جمع فيه مسانيد الصحابة مرتبين على حروف المعجم ماعدا مسند أبى هريرة فإنه افرده فى مصنف ، ويقال: إنه أورد فى الكبير نحو خمسمائة وعشرون الف حديث .

وإذا أطلق المعجم فى كلام العلماء فالمراد المعجم الكبير .

والمعجم الأوسط ألفه على أسماء شيوخه وهم نحو ألف رجل حتى إنه روى عمن عاش بعده لسعة روايته وكثرة شيوخه وأكثر من غرائب حديثهم . ويقال أن فيه ثلاثين ألف حديث وهو فى ست مجلدات كبار وكان يقول فيه : (هذا الكتاب روحى) .

وأما المعجم الصغير فهو فى مجلد واحد خرج فيه عن ألف شيخ يقتصر

(١) أنظر طبقات الشافعية جـ ٢ ص ١٤١ ولسان الميزان جـ ٥ ص ١١٢ . ومقدمة لسان الميزان لابن حجر . وفتح المغيث للسخاوى جـ ١ ص ٣٧

فيه — غالبا على حديث واحد عن كل واحد من شيوخه وهو نحو ألف وخمسمائة حديث بأسانيدها(١) .

قاسم بن أصبغ : هو أبو محمد قاسم بن أصبغ بن محمد بن يوسف البيانى نسبة إلى بيانة كجبانة بلدة بالأندلس على بعد ثلاثين ميلا من قرطبة المالكى المتوفى سنة ٣٤٠ هـ — أربعين وثلاث مائة وله كتاب الصحيح المنتقى (٢) .

ابن السكن : الحافظ أبو على سعيد بن عثمان بن سعيد بن السكن البغدادى نزيل مصر المتوفى بها سنة ٣٥٣ هـ . ثلاث وخمسين وثلاث مائة ألف الصحيح المنتقى ويسمى أيضا بالسنن الصحاح المأثورة عن النبى ﷺ ألفه على الابواب فى جميع ما يحتاج اليه من الأحكام وضمنه ما صح عنده من السنن المأثورة مع حذف الأسانيد .

قال: وما ذكرته فى كتابى هذا مجملا فهو مما أجمعوا على صحته وما ذكرته بعد ذلك مما يختاره أحد من الأئمة الذين سميتهم فقد بينت حجته فى قبول ما ذكره ونسبته إلى اختياره دون غيره وما ذكرته مما ينفرد به أحد من أهل النقل للحديث فقد بينت علته ودللت على انفراده دون غيره ١٥ هـ(٣) .

أبو جعفر الطحاوى :

هو أبو جعفر أحمد بن محمد الطحاوى المتوفى سنة ٣٢١ هـ إحدى وعشرين وثلاثمائة وله كتاب معانى الآثار وهو كتاب جليل القدر ذكر فيه أنه سأله بعض أصحابه تأليفا عن الآثار المأثورة عن رسول الله ﷺ فى

(١) كشف الظنون جـ ٢ ص ٢٩٠ والرسالة المستطرفة ص ١٠١

(٢) الرسالة المستطرفة ص ٢٠

(٣) كشف الظنون جـ ١ ص ٥١٠ والرسالة المستطرفة ص ٢٠ — ٢١

الأحكام التى يتوهم أهل الالحان والزندقة ان بعضها نقيض بعض لقلة علمهم بناسخها ومنسوخها .

فألف هـــذا الكتاب وجعله أبوابا ذكر فى كل باب مابه من الناسخ والمنسوخ وتأويل العلماء وإقامة الحجة على الصحيح

وقد عمل الإمام البدر العينى المتوفى سنة ٨٥٥هـ خمس وخمسين وثمانمائة عليه شرحا ، ولابن قطلوبغا المتوفى سنة ٨٧٩ هـ (تسع وسبعين وثمانمائة) كتاب الإيثار برجال معانى الآثار(١) .

الدارقطنى مع علماء الجرح والتعديل

لقـد اشترك الإمام الجليل أبو الحسن الدارقطنى مع العلماء فى الجرح والتعديل وهذا العلم يسمى علم ميزان الرجال وهو لون آخر من جهودهم فى خدمة السنة عن طريق علومها المختلفة الأنواع وما قاموا به من جلائل الأعمـال كوضع قوانين الرواية وتأسيس قواعد الجرح والتعديل ورفع التناقض الظاهرى عن أحاديث النبى ﷺ .

وهذا الفن هو عماد علوم السنة إذ به يتميز الصحيح من السقيم والمقبول من المردود . وقد أطبق العلماء على وجوب كشف حال الضعفاء والكذابين وإقامة النكير عليهم صيانة للدين وهو من النصيحة لله ولرسوله وللمسلمين .

فالكلام على جرح الرواة وتعديلهم أمر واجب على المسلمين ، وقد دلت قواعد الشريعة الغراء على أن حفظها فرض كفايه ولا يتأتى حفظها إلا بذلك وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب والجرح فى الاصطلاح المحدثين: رد الحافظ المتقن رواية الراوى ، لعلة قادحة فيه أو فى روايته من فيه فسق أوتدليس أو كذب أو شذوذ أو نحوها . والتعديل فى الاصطلاح هو: وصف الراوى بما يقتضى قبول روايته والعمل بها وحجيتها فى الدين .

(١) كشف الظنون ج ٢ ص ٢٧٦

وقد ثبت أن الرسول ﷺ جرح وعدل وأمر بالجرح — لدفع الضرر عن أحاديث الناس فثبت بالأولى لدفع الضرر عن الشريعة بصيانتها من أهل الضلالة والجهالة ومن ذهبت مروءتهم وساء حفظهم مخافة أن ينسبوا إليها ما ليس منها وذلك يؤدى إلى التزيد فى الدين وانتساب الزور والإفك إلى حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وتحريف الكلم عن مواضعه ، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى ومعلوم بالضرورة وجوب دفع ما يفسد الشريعة بالسيف فضلا عن الجرح والتعديل .

وليس ذكر المساوىء فى الجرح من الغيبة المحرمة لأنه نصيحة لا يقصد بها انتقاص ولا ازدراء لأحد .

فقد قال أبو تراب النخشبى (لأحمد بن حنبل) :

« يا شيخ أتغتاب العلماء تقول : فلان ضعيف ، فلان ثقة ، فقال أحمد « ويحك هذا نصيحة وليس بغية » .

هذا : وكل ما ذكرناه يدلنا دلالة واضحة على أن بحث الرواة ببيان أسباب عدالتهم وأسباب جرحهم ، أمر واجب ، وفريضة محكمة حث عليها الشرع وأيدها العقل .

ولهذا لم تتورع الصحابة رضوان الله عليهم — عن الكلام فى الرواة تعديلا وتجريحاً ولا التابعون ولا من جاء بعدهم .

فقد روى أن أبا بكر بن خلاد ، قال ليحيى بن سعيد القطان ، أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصمائك يوم القيامة ؟ .

فقال : لأن يكون هؤلاء خصمائى أحب إلى من أن يكون خصمى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول لى : لم لم تذب الكذب عن دينى .

لذا تكلم فى الجرح والتعديل خلائق لا يحصون ذكر ، منهم ابن عدى الجرجانى المتوفى سنة (٣٦٥) فى كتابه الكامل جملة إلى زمنه .

أول المتكلين فى الرجال :

وكان أول المتكلمين فى الرجال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ومن الصحابة ابن عباس المتوفى سنة (٦٨) وعبادة بن الصامت المتوفى سنة (٣٤) وأنس ابن مالك المتوفى سنة (٩٣) .

وكان أبو بكر وعمر وعلى يقبلون الرواه تارة ويردونهم تارة أخرى، وأحيانا يترددون ولم ينكر عليهم أحد لأن هذا مما يتطلبه الشرع ويدعو إليه التثبت والحزم .

واقتفى أثرهم كثير من أئمة التابعين رضى الله عنهم، ومن أشهرهم عامر الشعبى المتوفى سنة (١٠٤) وابن سيرين المتوفى سنة (٩٣) وهم قليل بالنسبة لمن بعدهم وذلك لقلة الضعف فيمن يروون عنهم .

وتكلم بعد التابعين من أتباعهم أهل الفضل منهم وذو المكانة فيهم ومن أشهرهم الليث بن سعد المتوفى سنة (١٥٦) والثورى المتوفى سنة (١٦١) رضى الله عنهم وخلفهم فى الزعامة شعبة بن الحجاج حين اتسع نطاق الرواية وفتحت أبوابها فتصدى للرواة وفرغ نفسه لفحصهم والحكم بتعديلهم أو تجريحهم .

وخلفه فى زعامته يحيى بن سعيد القطان سنة (١٨٩) ثم تلاميذ يحيى بن معين المتوفى سنة (٢٣٣) وعلى بن المدين سنة (٢٣٤) وإمام أئمة الحديث فى عصره أحمد بن حنبل (٢٤١) .

وهكذا تزايد المتكلمون فى الرواة وكثر عددهم فى كل عصر عما قبله حتى انتهى الأمر بتدوين السنة وقد استقصوا أحوال الرواة فردا

فردا وأحاطوا بهم علما فلم يفلت منهم كبير ولا صغير ولم يخف عليهم عدل ولا مجروح ولم يلتبس مقبول بمردود .

ثم خلفهم البخارى ٢٥٦ حتى جاء الدارقطنى سنة ٣٨٥ وتكلم فى الجرح والتعديل وكان معتدلا فى حكمه وبه ختمت العلل وألف فى الضعفاء وظل الحال كذلك حتى جاء ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ والسخاوى المتوفى سنة ٩٠٢ هـ والسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ وهو خاتمة علماء الجرح والتعديل والحفاظ .

* * *

المتشددون والمتساهلون فى التعديل والتجريح

قسم الذهبى المتكلمين فى الرجال ثلاثة أقسام :

القسم الأول : قسم متعنت فى التوثيق متثبت فى التعديل . يغمز الراوى بالنقطتين والثلاث فهذا إذا وثق شخصا فعض على قوله بنواجذك وتمسك بتوثيقه وإذا ضعف رجلا فانظر هل وافقه غيره على تضعيفه أم لا ؟

فإن وافقه ولم يوثق ذلك الرجل أحد من الحذاق فهو ضعيف وإن وثقه أحد فهذا هو الذى قالوا لا يقبل فيه الجرح إلا مفسراً : يعنى لا يكفى فيه قول ابن معين مثلا :

هو ضعيف ولم يبين سبب ضعفه ثم يجىء البخارى وغيره بتوثيقه .

فمثل هذا يختلف فى تصحيح حديثه وتضعيفه .

ومن هذه الطبقة : أبو حاتم وابنه والنسائى وشعبة وابن القطان وابن معين .

القسم الثانى : قسم متساهل ويرجع تساهله إلى مذهبه فى الجرح، واعتبار بعض الأوصاف على خلاف غيره أو عدم اعتبارها كتعديل المستور ونحوه وربما كان التساهل راجعا إلى عدم التحرى . كما فى ابن حزم فإنه جهل الترمذى والبغوى والصفار والأصم وغيرهم من المشهورين.

ومن هذه الطبقة الترمذى والحاكم والبزار والطبرانى والطحاوى وابن حزم الظاهرى .

والقسم الثالث : قسم معتدل يتحرى ولا يتشدد وهو واسع التحرى، ومن هذا القسم : أحمد بن حنبل والدارقطنى وابن عدى والبخارى(١).

هؤلاء هم علمـــاء الجرح والتعديل الذين وزنوا الرواة بميزان العدل وأنزلوهم منازلهم فحفظوا بذلك للسنة نضارتها وبركتها ولا زالوا فجزاهم الله عن الدين وعن سنة رسول الله خير الجزاء .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

والحمد لله رب العالمين

بقلم الدكتور
محمد مبارك السيد
أستاذ المساعد بقسم الحديث وعلومه
بكلية أصول الدين جامعة الأزهر
بالقاهرة

---

(١) نحن نرى أن الحافظ الذهبى من هذا القسم :